

الباب الثاني / الفصل الأول: الخلافة الراشدة في عهد أبي بكر الصديق

306

فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أوبح عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى أخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء. أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم⁽¹⁾.

لقد قرر الخليفة الأول في خطبته هذه، جملة أمور عن نظام الخلافة في الإسلام فضلاً عما تقدم، منها:

1. إن الخليفة هو شخص اعتيادي من المسلمين، وهو من بعد لا يمتلك سلطات روحية متميزة عن غيره من الناس "قد وليت عليكم ولست بخيركم".
2. إن الخليفة هو وكيل عن الأمة في رعاية الصالح العام، ومن ثم فعلى الأمة مراقبته في أثناء القيام بواجباته، فإن أحسن فعلهم معاونته، وإن أساء فعلهم تقويمه.
3. إن من واجبات الخليفة إقامة العدالة بين الناس والجهاد في سبيل الله.
4. إن الخليفة ليس حاكماً مطلقاً من الناحية التشريعية، بل هو مقيد بأحكام القرآن والسنة، فإن خرج عليهما فلا طاعة له على الناس.

ثالثاً: أعمال أبي بكر الصديق

لقد باشر أبو بكر الصديق واجباته في إدارة شؤون الدولة والسهر على مصالحها بعد مبايعته بالخلافة مباشرة، وكانت أهم الأعمال التي قام بها هي:

1- إنفاذ بعث أسامة:

لقد كان الرسول ﷺ قد جهز حملة بقيادة أسامة بن زيد لإرسالها إلى بلاد الشام، إلا أن مرض الرسول ﷺ ووفاته قد أخرت توجه هذه الحملة إلى هدفها. فلما تمت البيعة لأبي بكر الصديق بالخلافة كان أول عمل أمر بتنفيذه غداة بيعته هو إنفاذ بعث أسامة. فقد ذكر الطبري أنه قد "نادى منادي أبي بكر، من بعد الغد من متوفى رسول الله ﷺ: ليتم بعث أسامة، ألا لا يبقين بالمدينة أحد من جند أسامة إلا خرج إلى عسكره بالجرف"⁽²⁾.

لقد ضم جيش أسامة عدداً كبيراً من الصحابة من أهل المدينة فضلاً عن أبناء القبائل المقيمة حول المدينة والتي لم تساهم مع الرسول ﷺ في عام الحديبية. ويبدو

(1) المصدر نفسه، ق 2، ص 661.

(2) الطبري: تاريخ، ج 3، ص 223.

الباب الثاني / الفصل الأول: الخلافة الراشدة في عهد أبي بكر الصديق

307

أنه كان ثمة تردد بين الصحابة بشأن أمر إرسال هذه الحملة في هذا الوقت الذي بدأت تتردد فيه أخبار عن ردة بعض القبائل العربية. إلا أن أبا بكر الصديق قد أصر على إرسالها تنفيذاً لأمر رسول الله ﷺ^(١). كما شكوا بعض الصحابة من تأمير أسامة بن زيد على الجيش، وفيه بعض كبار الصحابة، وطلبوا من عمر بن الخطاب أن يكلم أبا بكر الصديق بشأن تبديله. فلما فعل ذلك عمر، رد عليه أبو بكر الصديق بغضب قائلاً: ثكلتك امك وعذمتك يا ابن الخطاب استعمله رسول الله ﷺ وتأمرني أن أنزعه^(٢). وهكذا فقد انطلق جيش أسامة من المدينة في آخر شهر ربيع الأول سنة 11هـ^(٣)، وخرج أبو بكر الصديق في توديعه، حيث قال لأسامة: "اصنع ما أمرك به نبي الله ﷺ، أبداً ببلاد قضاة ثم أيت آبل، ولا تقصرون في شيء من أمر رسول الله ﷺ..."^(٤)، وقد طلب أبو بكر الصديق من أسامة أن يأذن له بتخلف (عمر بن الخطاب) عن هذه الغزوة لحاجته الماسة إليه في إدارة الدولة فأذن له بذلك^(٥).

لقد قام أسامة خلال هذه الحملة بأعمال تعرضية خفيفة ضد قبائل قضاة وآبل، "فسلم وغنم" ثم عاد إلى المدينة بعد أن مكث في تلك الديار أربعين يوماً^(٦). وبذلك امتد غيابه عن المدينة حوالي سبعين يوماً^(٧). كان أبو بكر خلالها أحوج ما يكون إلى قوة هذا الجيش لاستخدامها في مواجهة حركات الردة التي تصاعدت حداثها في هذه الفترة.

2- مقاومة حركات الردة:

تعني كلمة الردة في اصطلاح الفقهاء العودة عن الإسلام إلى الكفر، وعقوبة المرتد في الشريعة الإسلامية هي القتل عملاً بقول الرسول ﷺ: "من بدل دينه فاقتلوه"^(٨).

غير أن هذا المصطلح أطلق في زمن أبي بكر الصديق على أفراد وفئات عريضة من الناس كانوا قد خرجوا على طاعة الدولة إما بسبب نقضهم للعهود التي كانت بينهم

(١) المصدر نفسه، ج 3، ص 225 - 226.
(٢) المصدر نفسه، ج 3، ص 226.
(٣) المصدر نفسه، ج 3، ص 240.
(٤) المصدر نفسه، ج 3، ص 226 - 227.
(٥) المصدر نفسه، ج 3، ص 227.
(٦) المصدر نفسه، ج 3، ص 227.
(٧) المصدر نفسه، ج 3، ص 241.
(٨) الصنعاني: سبل السلام، القاهرة 1357هـ، ج 3، ص 354.

عرف الردة

باب حركات الردة

نتائجها

وبينها، أو بسبب امتناعهم عن دفع الزكاة أو إصرارهم على الشرك وعدم الدخول في الإسلام، أو كفرهم بالإسلام واتباع الأنبياء الكذابين من أمثال مسيلمة الكذاب والأسود العنسي وطلحة الأسدي وسجاح التميمية⁽¹⁾ والحقيقة أن الردة حسب هذا المفهوم الواسع كانت قد بدأت في أواخر عهد الرسول ﷺ، إذ أن كثيراً من القبائل العربية كانت قد أعلنت دخولها في الإسلام بعد السنة التاسعة للهجرة بمعنى قبول سلطة الرسول السياسية والاعتراف بسيادة الإسلام في ديارهم. أما مسألة اعتناق كل فرد من أفراد هذه القبائل الإسلام وتفقهه بأحكامه فقد كانت تتطلب وقتاً طويلاً مضنياً، مما لم يتم تحقيقه في الفترة القصيرة التي عاشها الرسول ﷺ بعد دخول هذه القبائل في الإسلام. بل إن بعض هذه القبائل قد جاهرت بكفرها قبل وفاة الرسول ﷺ وظهر بينها من يدعي النبوة مثل الأسود العنسي ومسيلة الكذاب.

لقد كانت حركات الردة مظهراً من مظاهر العصية القبلية التي ترفض الانصهار والتوحد في إطار الإسلام ودولته، وكانت حروب أبي بكر الصديق للمرتدين تعبيراً عن حرصه على تحقيق هذه الوحدة واستكمال ما بدأه الرسول ﷺ في هذا المجال⁽²⁾. ومن أجل توضيح الأبعاد التاريخية لتطور هذه الحركات سنبدأ بدراسة حركات الأنبياء الكذابين وكيف تداخلت وتحالفت مع حركات الانتفاض على خلافة أبي بكر الصديق والامتناع عن دفع الزكاة ومحاربة الدولة الإسلامية.

أ. حركة الأسود العنسي:

يبدو أن نزول الوحي على الرسول ﷺ ونجاحه في قيادة العرب استناداً إلى صفته الدينية قد أغريا بعض كهان العرب لادعاء النبوة ودعوة قومهم للإيمان بهم وتسليم قيادتها لهم وكان من جملة هؤلاء الكهان، عبهلة بن كعب الذي عرف بالأسود العنسي، ربما لسواد بشرته، وكان يكنى "ذو الخمار"⁽³⁾. فقد ذكر الطبري أن الأسود كان "كاهناً شعباداً - أي مشعوذاً - وكان يريهم الأعاجيب ويسبي قلوب من سمع منطقته"⁽⁴⁾. كما ذكر أنه كان "معه شيطان وتابع له"⁽⁵⁾، وإن هذا الشيطان كان يحرسه

الأنبياء
الكذابين
لأعدادهم
سار
مكي
جاهرت
حركات
الردة

أسود العنسي
اسمه
عبهلة
بن كعب

لماذا سمى
بالأسود
العنسي
لأسواد بشرته

- (1) العلي: الدولة في عهد الرسول، ج 2، ص 446 - 448.
- (2) الدوري: مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، ص 42 - 43.
- (3) الطبري: تاريخ، ج 3، ص 185.
- (4) المصدر نفسه، ج 3، ص 185.
- (5) المصدر نفسه، ج 3، ص 236.

وبحيطه علما ببعض الأمور⁽¹⁾ كما ذكر البلاذري أن الأسود قد سمي نفسه رحمان اليمن⁽²⁾، مما يوحي بأنه كان قد ادعى الألوهية "وهو ما لم يقل به أحد من الرواة، فالراجح أن تعبير البلاذري غير دقيق، وإن الأسود دعا إلى عبادة رحمان اليمن، أي أنه لم يدع إلى عبادة أحد آلهة النجوم التي كانت تعبد قديماً في اليمن، وإنما دعا إلى عبادة إله سماوي سلطانه مقصور على اليمن، وليس بعالمي، ولكن المصادر لم تذكر تفاصيل عن الأفكار الدينية التي دعا إليها، ولم تذكر أنه وضع لاتباعه طقوساً أو فرائض أو تنظيمات محددة"⁽³⁾.

8/ هذا فاسمي ذو الحمار

أذن الحمار

لقد كان الأسود العنسي يضع خماراً على وجهه على عادة الكهان، لذا سمي "ذو الخمار"، فكان "متخمرأ معتمأ ابداً"⁽⁴⁾. كما أشار البلاذري إلى أنه كان يدعى ذو الحمار لأنه "كان له حمار معلم يقول له اسجد لربك فيسجد، ويقول له ابرك فيبرك فسمي ذا الحمار"⁽⁵⁾.

ويبدو أن الأسود قد بدأ دعوته لنفسه بصورة سرية واستطاع في البداية أن يكسب لجانبه قومه من عنس إحدى بطون قبيلة مذحج، ثم أخذ أتباعه في الازدياد بعد الإعلان عن نفسه وذلك قبل وفاة الرسول ﷺ بحوالي أربعة أشهر⁽⁶⁾، حتى تمكن من بسط سيطرته على أجزاء واسعة من أرض اليمن. يقول الطبري: وغلب الأسود على ما بين صهيد - مفازة حضرموت - إلى عمل الطائف إلى البحرين قبل عدن، وطابقت عليه اليمن... وجعل يستطير استطارة الحريق"⁽⁷⁾.

8/ ولم يحاول الأسود العنسي الاتصال بالرسول ﷺ أو مد نفوذه إلى خارج حدود اليمن مما يدل على أن حركته كانت ذات طابع إقليمي محدود، وإن العصية القبلية كانت هي المحرك الأساس لها⁽⁸⁾. لقد عمل الرسول ﷺ على مقاومة الأسود من خلال الوسائل الدبلوماسية وتحريض المسلمين في اليمن على مقاومته "فحاربه النبي (عليه السلام) بالرسل

(1) المصدر نفسه، ج 3، ص 238.

(2) البلاذري: فتوح البلدان، ص 113.

(3) العلي: الدولة في عهد الرسول، ج 2، ص 465.

(4) البلاذري: فتوح البلدان، ص 113.

(5) المصدر نفسه، ص 113.

(6) الطبري: تاريخ، ج 3، ص 240.

(7) 238

الباب الثاني / الفصل الأول: الخلافة الراشدة في عهد أبي بكر الصديق

والكتب حتى قتله الله، وعاد أمر النبي (عليه السلام)، كما كان قبل وفاة النبي (عليه السلام) بليلة⁽¹⁾.

وقد تم ذلك من خلال قيام قيس بن مكشوح بالتعاون مع اثنين من زعماء الأبناء وهم فيروز ودأويه في قتله، وكان ذلك في شهر ربيع الأول من سنة 11هـ، أي قبل وفاة الرسول ﷺ، وقد وصل خبر مقتله إلى المدينة بعد مبايعة أبي بكر الصديق بالخلافة⁽²⁾.

لقد كان مقدراً لليمن أن تستقر فيها الأوضاع بعد مقتل الأسود العنسي، غير أن وفاة الرسول ﷺ المفاجئة، قد قوت من عزيمة اتباع الأسود العنسي على مواصلة خروجهم على الدولة فضلاً عن بعض ذوي الطموح السياسي من أمثال قيس بن مكشوح المرادي وعمر بن معد يكرب⁽³⁾. فاضطر أبو بكر الصديق إلى محاربتهم بما حاربهم به الرسول ﷺ في البداية بالكتب والرسل⁽⁴⁾، حتى عاد بعث أسامة إلى المدينة، ثم قام بتوجيه الجيوش إلى اليمن وغيرها حيث تم له القضاء على المرتدين واعادتهم إلى حظيرة الإسلام. ويبدو أن دوافع ردة اليمن الثانية كانت الرغبة في الاستقلال عن الدولة وعدم دفع الزكاة يقول البلاذري "وارتدت خولان فوجه إليهم أبو بكر يعلى بن منبه فقاتلهم حتى اذعنوا وأقروا بالصدقة"⁽⁵⁾. كما ذكر الطبري في أخباره عن ردة حضرموت أن المرتدين قالوا: "لا تصلح البلدة علينا وعلى هؤلاء حتى تخلوا لأحد الفريقين، فأجمعوا وعسكروا جميعاً، ونادوا بمنع الصدقة"⁽⁶⁾.

ب. حركة طليحة بن خويلد الأسدي:

كان طليحة كما يقول الجاحظ "خطيباً، وشاعراً، وشجاعاً وكاهناً، ناسباً"⁽⁷⁾. وقد أهلت هذه الصفات لأن يكون ضمن وفد قبيلته أسد حينما قدموا إلى المدينة في سنة تسعة للهجرة لمقابلة الرسول ﷺ. وقد ذكر ابن سعد أن سلوك هذا الوفد في أثناء مقابلته للرسول ﷺ قد اتسم بالجفاء والتعالي. فقد قال حضرمي بن عامر للرسول ﷺ:

(1) الطبري: تاريخ، ج 3، ص 318.

(2) المصدر نفسه، ج 3، ص 230 - 236، البلاذري: فتوح البلدان، ص 114.

(3) الطبري: تاريخ، ج 3، ص 318 - 319، 323 - 327.

(4) المصدر نفسه، ج 3، ص 319.

(5) البلاذري: فتوح البلدان، ص 112.

(6) الطبري: تاريخ، ج 3، ص 333.

(7) الجاحظ: البيان والتبيين، ج 1، ص 359.